أوائل القرن التاسع عشر ، والذى كانت المرأة فيه مستغرقة فى نوم عميق ، لا يسمع لها صوت ، ولا ترقب لها حركة ، متذرعة بالكسل والجهل والجمود ، وقدتكون مظلومة فى هذا الأمر ، لأن الرجل لم يعلمها ولم يشجعها على الانطلاق من هذه القيود ، أما السيدة نفيسة المرادية لم تطفر هذه الطفرة ، ولم تثبت شخصيتها إلا بفضل التعليم والتهذيب الذى أولاها إياه زوجها الأول ، وإذعان زوجها الثانى مراد بك بفرض أن شخصيتها كانت طاغية عليه ، حتى أنه لم يصارحها فى نواحى الإصلاح الذى عنيت به ، وهو إصلاح كان خليق به أن ينفذه ، لأن المظالم التى حدثت للتجار الفرنسيين كانت بأسباب سياسته الخرقاء وسياسة عملائه من الأتباع والحكام . لا سيما وقد طال حكمه (عن كل حكم مملوكى سابق) إلى ثلاثين عاما ، وقد نسب إليه العلماء أن مظالمه أدت إلى الحملة الفرنسية ، وتدخل الإفرنج فى حكم البلاد ، ولو كان له بسطة من وعى ، أو مسكة من عدل ، لانتظمت أحوال البلاد فى عهده ، ولعمها الرخاء ، ولنعم أبناء الوادى بظلال اليسر والرخاء والاستقرار .

والمرأة العظيمة التى تعنى برفع المظالم عن الأجانب ، ورد حقوقهم لا شك أنها لن تغمض عينيها عن المظالم التى تحيق بالمواطنين من حكامهم من طغاة المماليك وأعوانهم ، ولذلك كانت موئلا لهم فى إعانتهم فى ما يحيق بهم من مظالم ، وطالما لجأوا إليها ، فوجدوا فى جنابها كل عون وغوث ، ومدت لهم من أسباب الأمن والحماية مما ألهج الألسنة بالثناء عليها وتخليد ذكراها فى التاريخ وقد سماها الجبرتى فى نعيه لها « الشهيرة الذكر بالخير » وسترى فى السطور القادمة ، ما يوضح هذا المعنى ويؤيد هذا الوصف .